فؤاد سراج الدين

□ آخر باشوات مصر

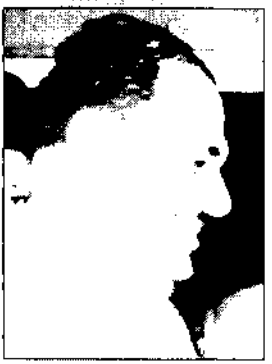

- معركته ضد الإنجليز أصبحت عيداً للشرطة
- صنع سيجاراً من الخشب .. فأمر عبد الناصر باعتقاله
- الباشا اضطر لبيع مقتنياته وأثاث منزله ليعيش
- ربطته علاقات حميمة حتى مع من خالفوه الرأي
- لماذا وصف ثورة يوليو بالانقلاب العسكري؟

قد لا يعرف الكثيرون من شباب هذا الزمن من يكون الباشا «فؤاد سراج الدين» وتاريخه السياسي والحزبي؟. وربما بعضهم قد سمعوا باسمه رغم أنه قد يكون السياسي العربي الوحيد الذي تميز عن غيره من السياسيين العرب باستمراره في ممارسة العمل السياسي ووقوفه تحت أضوائه على مدى أكثر من ستين عاماً كاملة، عاصر خلالها الكثير من الأحداث وكانت له صولاته وجولاته السياسية والحزبية الجريئة طوال تلك السنوات التي وضعته في مكانة بارزة وسط السياسيين المصريين..

أوراق وملفات كثيرة اطلعت عليها. وأسئلة عديدة طرحتها على من عايشوا فؤاد سراج الدين عن قرب، كما استعنت من أرشيفي بأحاديث صحفية أجريتها معه، ووجدت كل هذا وذاك يقف إلى جانب الرجل كسياسي شجاع في الحق لا يخاف فيه لومة لائم، مثلما كان شجاعاً في المواقف لا يرهب عواقبها..

فمشوار فؤاد سراج الدين الطويل خاض خلاله أكثر من معركة في أكثر من ميدان وتقلد العديد من المناصب بدأت في ميدان القضاء بالعمل بالمحاماة بعد تخرجه من كلية الحقوق إلى أن أصبح وكيلاً للنائب العام عام ١٩٣٢.

يراه البعض ظاهرة سياسية في تاريخ مصر المعاصر منذ أن بدأ مشواره السياسي مبكراً عام ١٩٣٦ كنائب لامع عن حزب الوفد في البرلمان المصري، وكان سنه أقل أربع سنوات عن السن

القانونيـــة لعضوية المجلس، ثم عضواً بمجلس الشـــيوخ ثم زعيماً للمعارضة الوفدية وعضواً بالقيادة العليا لحزب الوفد ثم ســـكرتيراً عاماً للحزب عام ١٩٤٨..

وبرغم أن فؤاد سراج الدين كان من جناح كبار الملاك في حزب الوفـــد، وتبدو على مظهره العظمة والفخامة إلا أنه لم يكن متعالياً في ســـلوكه مع المحيطين به ومع من هم أقل منه كثيراً في المنزلة، كمـــا كان منكراً لذاته، ويذكر أنه عندما اضطر «مصطفى النحاس» أن يقيم هو وزوجته في بيت «فؤاد سراج الدين» خصص له الجناح الأكبر في البيت، ورغم تبرم الســـيدة حرم ســـراج الدين من زيادة المصاريف بســـبب كثـــرة زوار النحاس والولائم الـــتي كان يقيمها إلا أن فؤاد ســـراج الدين قال: «إن النحاس باشـــا عندما كان ضيفاً في بيتي لعدة شهور هو الذي كان يصرف على البيت وحين كنت أخجل من ذلك كان يرفض ويصر على أن يصرف.

ضد الملل

تاريخ فؤاد سراج الدين السياسي حافل بالمواقف، فعندما عُين وزيراً للداخلية عام ١٩٥٠ شـــهدت فترة ولايته حرية غير مسبوقة للصحافة وسيادة الحريات، ورغم سطوة الملك ورجال القصر الملكي وسيطرتهم على تسيير الأمور إلا أن الأوراق والمستندات وشهادات الشهود تؤكد أن فؤاد سراج الدين – وعكس بعض ما قيل – كانت

له مواقفـه الحازمة. ومعاركه الضارية مع الملك ورجال القصر من أجـل المصلحة الوطنية، حتى أنه ذات يـوم قام بمحاصرة قصر عابدين برجال الشـرطة للقبض على أحد المقربين من الملك، وهدد رئيس الديوان الملكي باقتحام الشرطة للقصر لو لم يتم تسليم الشخص المطلوب القبض عليه، كما رفض سفر راقصة مشهورة من المقربات من الملك «فاروق» للاشتراك في مسابقة في أوروبا حفاظاً على سمعة مصر، وتؤكد كثير من الوثائق أن فؤاد سراج الدين هو صاحب قرار مجانيـة التعليم الذي أصدرته حكومة الوفد عام ١٩٥٠.. كما كان أول مـن طالـب بإلغاء معاهـدة ١٩٣٦ مع بريطانيـا، بل إنه هو الذي صاغ العبارة الشـهيرة التي أعلنها مصطفى النحاس باشا في أكتوبـر عام ١٩٥١ عن إلغـاء المعاهدة أمام البرلمان «من أجل مصر وقعـت المعاهدة، ومن أجل مصر أطالبكم اليـوم بإلغائها».. وبعد إلغاء المعاهدة تولى سـراج الدين مسـئولية الإشـراف على تدريب الفدائيين ورجال المقاومة ومسـاعدتهم بالأسلحة حيث كان يشغل منصب وزير الداخليـة ودخل مع الإنجليز في معركة الإسماعيلية الشهيرة في ٢٥ يناير ١٩٥٢ عندما حاصرت قوات الاحتلال مبنى محافظة الإسماعيلية بعشـرات الدبابات و٣٠٠٠ جندي وطالبت الشـرطة المصرية بإلقاء السلاح والاستسـلام، وحينما اتصل أحد الضباط بوزير الداخلية فؤاد سراج الدين يسأله عن التعليمات أمره بعدم الاستسـلام وقال له: «إن شـرفنا هو رد العدوان لآخر طلقة في أيدينا..»

وقـد اعتبرت هذه المعركة الخالدة رمزاً لصمود رجال الشـرطة وأصبح تاريخها عيداً للشرطة حتى يومنا هذا..

وفي اليـوم التالـي لمعركة الإسماعيلية اندلـع حريق القاهرة في السـاعة الثانية عشـرة وسـبع وعشـرين دقيقة ظهراً. ووجهت الاتهامات إلى حكومة الوفد بمسئوليتها عن الحريق. بينما كشف سراج الدين حقائق أثبتت ضلوع أيادٍ معادية لحزب الوفد وتهدف إلى إجهاض الحركة الوطنية باندلاع الحريق وحمّل الجيش والقصر الملكي المسئولية ..

ويؤكـد الكثير من المؤرخين أن معركة الإسماعيلية التي أعقبها حريق القاهرة كانت الدافع الأساسي للتعجيل بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حيث دفعت بطولة رجال الشـرطة دماء الحماس في عروق رجال الجيش. وفي نفس الوقت استفزتهم مشاهد الخراب والدمار الذي آلت إليه القاهرة في أعقاب الحريق.

في سجون الثورة

هناك من المواقف والأحداث ما يؤكد اعتراف الجميع – الخصوم والموالين – بوطنية فؤاد سراج الدين ومكانته الرفيعة وسط السياسيين المصريين. فرغم أن رجال ثورة يوليو كان في مقدمة أهدافهم الإطاحة بـكل رمـوز عصر ما قبل الثورة إلا أنهم عندمـا قاموا بالثورة كان «فؤاد سـراج الدين» يصطاف في سويسرا. وقرر قطع إجازته وعاد

إلى القاهـرة، فذهب إليه جمال عبد الناصـر وطلب منه أن يتولى حزب الوفد السلطة ويتحالف مع الجيش من أجل هدف التحرير الأسمى، واشـترط عبد الناصر على الباشـا أن يوافق الحزب على الإصـلاح الزراعي، وقد وافق سـراج الدين على القانون من حيث المبدأ، ولكنه اختلـف في التفاصيل، ومن هنا توترت العلاقة بين فؤاد سراج الدن ورجال الثورة، وسرعان ما تحول التوتر إلى كراهية دامت ٢٩ سـنة، ودفع ثمنها الباشا من بعض سنوات عمره التي قضاها خلف أسـوار المعتقلات والسجون بالإضافة إلى الإساءة إليه من مختلف وسـائل الدولة الإعلامية والأمنية.. فبعد مرور شـهر ونصف على قيام ثورة يوليو وفي الخامس من شـهر سبتمبر ١٩٥٢ تم اعتقاله لمدة أربعة شهور، لم يكد يفرج عنه في شهر ديسمبر من نفـس العام حتى اعتقل مرة أخـرى في يناير عام ١٩٥٣، وطالت فترة اعتقاله هذه المرة إلى ثمانية شهور قضاها في السجن الحربي، وبعـد حوالي أربعة شـهور من الإفراج عنـه وفي يناير عام ١٩٥٤ قُـدِّم ومعه عدد من أقطاب حزب الوفد إلى المحاكمة، وحُكم عليه بالأشـغال الشـاقة المؤبدة لمدة ١٥ عاماً، ورغم أنه تم الإفراج عنه في بدايـات عـام ١٩٥٦ إلا أنه ظل نزيلاً على المعتقلات بين فترة وأخـرى حيث اعتقل ثلاث مرات بعد ذلك في عهد عبد الناصر، ثم كان اعتقاله لآخر مرة في عهد السـادات فيما عرف باعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١ التي جمعت ١٥٣٦ معتقلاً من رموز مصر وكان اسم فؤاد سراج الدين في مقدمتهم..

ويؤكد الذين اقتربوا من فؤاد سراج الدين أنه كان سريع البديهة ويتمتع بذكاء حاد، فمنذ اعتقاله ضمن اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ التي ضمت كل ألوان الطيف السياسية من العديد من التيارات، ناداه ذات مرة أحد زملاء العنبر «يا فؤاد باشا»، وهنا غضب زميل آخر لهم في العنبر وهو كمال أحمد المحامي وصاح قائلاً : «باشا إيه؟ الباشاوية اتلغت من زمان .. اللي عايز يناديه يقوله يا أستاذ فؤاد ..» فرد عليه فؤاد سراج الدين بسرعة: «عندك حق يا كمال باشا..»

وفي السجن أيضاً اقترب فؤاد سراج الدين باشا من العديد ممن يخالفونه الرأي والتوجه السياسي مثل الكاتب الكبير «صلاح عيسى» المعروف بتوجهه الناصري، ورغم خلافهما هذا إلا أن «صلاح عيسى» اقترب كثيراً من الباشا طوال فترة حبسهما لتمتد العلاقة الحميمة بينهما خارج أسوار السجن، ووصلت حميمية هذه العلاقة إلى حد أن «صلاح عيسى» ألف كتاباً كاملاً عن فؤاد سراج الدين، وذكرياتهما معاً وضمنه الكثير من الآراء الإيجابية عن فؤاد سراج الدين وهو ما يؤكد قدرة الباشا على كسب الأصدقاء مهما اختلف معهم في الآراء أو السياسات .

السجن بسبب سيجار من الخشب

غريبة هي بعض الروايات التي سمعتها عن أسباب اعتقال فؤاد سراج الدين، لعل أكثرها غرابة تلك التي رواها الكاتب

الكبير سعيد عبد الخالق كما سمعها من الباشا نفسه، ففي عهد جمال عبد الناصر عانى من ضائقة مالية بعد أن سلبت أمواله وممتلكاته، فلم يعد يملك ثمن شراء السيجار الذي اعتاد تدخينه ولم يكن يفارق يده إلا نادراً، ولذلك وحتى يوهم نفسه فقد استطاع باستخدام آلة حادة أن يهذب عصا حتى أصبحت على شكل سيجار، واعتاد إمساكها بيده، وفي أحد أيام شهر نوفمبر من عام ١٩٦٥ توجه إلى نادي الجزيرة، وفي يده قطعة العصا التي تشبه السيجار، وجلس في الحديقة وتناول فنجان قهوة، وتصادف بعد ذلك أن التقى جمال عبد الناصر بأحد رواد نادي الجزيرة وسأله: إيه أخبار فؤاد سراج الدين؟ هو لسة بيقعد في نادي الجزيرة ولسة بيدخن السيجار؟ فأجاب الرجل: نعم يا فندم لسة بيقعد في نادي الجزيرة ولسة بيدخن السيجار، وهنا غضب عبد الناصر بشدة، واتصل على الفور بزكريا محيي الدين وزير الداخلية في ذلك الوقت وطلب منه اعتقال فؤاد سراج الدين لأنه «لسة معاه فلوس وبيدخن سيجار».. وتم اعتقال فؤاد سراج الدين وقضى أسبوعاً في السجن الحربي..

لقد عاني الباشا فؤاد سراج الدين من شظف العيش في عهد جمال عبد الناصر حيث تعرض لضائقة مالية بعد أن سلبوه أملاكه ولم يعد له دخل سوى معاشه..

وعن هذه الفترة يقول الكاتب الصحفي سعيد عبد الخالق: لقد اضطر فؤاد سراج الدين بعد اغتصاب ممتلكاته إلى بيع سجاد

و«فازات» منزله وكذلك الكرافتات التي كان يملكها، كما اضطر إلى بيع التحف وبعض الأثاث حتى يعيش، والأكثر من ذلك عدم قدرته على تفصيل بدلة واحدة واضطراره إلى تضييق البدل بعد خروجه من المعتقل، والتنبيه على الترزي بأن يترك الزيادة في البدلة حتى يقوم بتوسيعها عندما يسترد عافيته، وقد استمر هذا الحال حتى استرد فؤاد سراج الدين بعض أملاكه في عهد الرئيس الراحل أنور السادات.

الإعدام

من المؤكد أن علاقة الباشا بثورة يوليو مرت بمراحل مختلفة من التوتر وعدم الثقة، فقد سجن عدة مرات في عصر عبد الناصر، كما تعرض لموجة من الهجوم الشديد من الرئيس السادات حتى أنه عند عودة حزب الوفد إلى الساحة السياسية أوعز البعض إلى الرئيس السادات بأن فؤاد سراج الدين بعد أن ازدادت شعبيته بدرجة كبيرة كرئيس لحزب الوفد الجديد يسعى إلى الوصول إلى منصب رئيس الجمهورية، وهنا شن السادات حملة على الحزب ورئيسه لدرجة أنه قال إن ثورة يوليو أخطأت عندما لم تعدم فؤاد سراج الدين، وفي نفس الوقت دعا السادات إلى استصدار قانون يبيح تطبيق العزل السياسي على الذين تولوا مناصب قبل الثورة، كما يتيح حل الأحزاب وعزل قياداتها، وهنا دعا سراج الدين

إلى اجتماع الهيئة العليا لحزب الوفد والتي قررت في شـــهر يونيو عام ١٩٧٨ تجميد حزب الوفد الجديد..ومرت الأيام وسماء العلاقة بين الســـادات وفؤاد سراج الدين ملبدة بالغيوم حتى تم اعتقاله في ســـبتمبر ضمن ١٥٦٤ شخصية تم اعتقالهم في ليلة واحدة، وحتى أفرج عنه الرئيس حسني مبارك في شهر نوفمبر من نفس العام بعد رحيل السادات..

وبعد حوالي عامين عاد فؤاد ســـراج الدين لنشـــاطه السياســـي حين أصدر في شـــهر أغســـطس من عام ١٩٨٣ قـــراره بإلغاء قرار تجميـــد الحزب وصدرت جريدة الوفد في شـــهر مارس عام ١٩٨٤ لتنطلق كأشهر جريدة حزبية معارضة في مصر في ذلك الوقت.

حوار مع الباشا

لقد جذبتني شـــخصية فؤاد ســـراج الدين وأردت الاقتراب منه بإجـــراء حديث صحفي معه، فلجـــأت إلى الكاتب الكبير «جمال بدوي» أثناء رئاسته لتحرير جريدة الوفد والذي تربطني به علاقة وطيدة، وطلبت مساعدته في تدبير موعد مع الباشا..

وعندمـــا التقيـــت به لفت نظري من اللحظـــة الأولى أنه على الرغم من قوة شـــخصيته فإنه يســـتطيع أن يخلق لديك انطباعاً بالبســـاطة والتواضع، بل إنه يســـتخدم أثنـــاء حواره الكثير من القفشـــات والتعبيرات اللاذعة المهذبة التي تخلق جواً من المودة

والألفة وتزيل حواجز اللقاء مع شخصية بحجم «فؤاد سراج الدين»..

يومها سألته سؤالاً مباشراً : لماذا تكرهون في الوفد ثورة يوليو وتهاجمونها، بل إنك شخصياً كثيراً ما وصفتها بأنها انقلاب عسكري؟

رد بهدوء : نحن لم نكن يوماً ضد ثورة يوليو باعتبارها حدث له آثاره سياسياً واجتماعياً، بل إننا أيَّدناها منذ اليوم الأول، وفور قيامها عدت أنا والمرحوم «مصطفى النحاس» من «جنيف»، وكان الملك لا يزال على العرش لنؤيد الثورة في مواجهة الملك، وقبلها أرسلنا نقول لأعضاء حزب الوفد إننا مع الثورة فأيدوها. أما عن مقولتي بأنها انقلاب عسكري فلأن الثورة تبدأ من الشارع على نحو ما حدث في ثورة ١٩١٩، ولم يكن بوسعي الاستمرار في تأييد هذه الثورة أو الحركة أو الانقلاب في ظل ما ارتكبته من أخطاء وخطايا.. ومن هنا كان الصدام ..

وقبل أن أختتم هذه السطور عن الراحل «فؤاد سراج الدين» استوقفتني هذه الكلمات التي نقلتها عن الكاتب الكبير الراحل «مصطفى أمين» والتي يقول فيها إن الرئيس السادات طلب منه أن يكتب مقالات ضد «فؤاد سراج الدين» وحزب الوفد إلا أنه رفض قائلاً: إنني إذا هاجمت الوفد ورئيسه فإنني سأحقق عكس غرضك. وسأقويهم لأن الناس تعطف على الذي تهاجمه دون

سـبب.. ولقـد كتبت أهاجم الوفـد في الماضي عندمـا كان يملك أربع عشـرة جريدة ومجلة أسبوعية.. أهاجمه فترد صحافته على هجومي، أما اليوم فأنا لا أسـتطيع أن أهاجم من لا يملك الدفاع عن نفسـه، وأنا أعتبر الصحافة فروسية.. تهاجم الرجل وهو فوق حصانه، فإذا وقع عن حصانه أوقفت الحرب عليه .

الباشا
في صباه

مع مصطفى النحاس باشا

يترافع فى المحكمة

مع ابنتيه